Umm Al-Qura Univ. J. Sci.. Med. Eng. Vol. 17, No.1, pp.31 -56 (2005) 25-01-022 © The University Press

الحديقة الإسلامية : حديقة أرضية أم جنة أرضية

عبدالعزيز بن محمد العويّد

قسم عمارة البيئة – كلية العمارة والتخطيط

جامعة الملك فيصل – ص.ب 2397 الدمام 31451

Islamic Garden : Earthly Garden or Earthly Paradise

Abstract

The aim of this paper is to investigate the concept of relating the Islamic garden to the Islamic paradise promised in the holy Quran and Prophet Mohammed's traditions. In fact many writers, on the history of Islamic landscape architecture emphasized a direct connection between the design of earthly Muslim gardens and the descriptions of the Islamic paradise . This paper examines closely this concept of relating the two gardens and establishes a counter argument. This argument is centered around the fact that imitating paradise garden was not the exact intention of the designers of Muslim gardens nor was that possible, due to the differences in the nature of the two and the limitations of the earthly one. To establish such argument, this paper explores the paradise concept in Islamic sources and the general facets of linkage between the earthly and celestial Islamic gardens. It also looks into the supposed effect of desert dwellers' culture on the perception of paradise. Moreover, it underlines the differences between the design related aspects of celestial gardens and their assumed counterparts in earthly ones. In addition, it looks into the Islamic view of sensual pleasures in relation to the earthly and celestial gardens.

Key words : Islamic Garden, Islamic Landscape Architecture, Islamic Garden History, Islamic Garden Design.

تهدف هذه الورقة إلى دراسة المفهوم الغربي الذي يؤكد على الارتباط بين الحديقة الإسلامية الأرضية والجنة الأخروية الموعودة في القرآن الكريم وسنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . فقد ركز كثير من الكتاب في تاريخ عمارة البيئة على الارتباط الوثيق بين تصميم الحديقة الإسلامية الأرضية وأوصاف الجنة الإسلامية . تناقش هذه الورقة عن كثب مفهوم ارتباط الحديقة بصفة الجنة الواردة في القران والسنة. وتتبنى وجهة نظر مخالفة ترتكز على أن مشاكلة الحديقة السماوية لم يكن قصد مصممي الحدائق الإسلامية ، لعدم إمكانية ذلك عقلاً ونقلاً. ويعود ذلك إلى الطبيعة المختلفة لكل منهما وللقصور الملموس في الحديقة الأرضية . ولتفعيل وجهة النظر هذه، تستعرض هذه الورقة مفهوم الجنة في المصادر الإسلامية و أوجه الارتباط التجريدي بين الجنة والحديقة الأرضية . إضافة لذلك فإنها تنظر في الفكرة التي تفترض

وجود تأثير لثقافة سكان الصحراء على تصورهم للجنة . كما أنها توضح الفروق بين العناصر التصميمية التي في الجنة و ما يفترض أنه يقابلها في الحديقة الأرضية. كما تستعرض الورقة النظرة الإسلامية للمتع الحسية لما لها من علاقة وثيقة بكل من الجنة والحديقة الأرضية.

كلمات الفهرسة : الحديقة الإسلامية ، عمارة البيئة الإسلامية ، تاريخ الحديقة الإسلامية ، تصميم الحديقة الإسلامية .

المقدمـــــة

كثيرة هي مدارس التصميم و أنماط الحدائق في العالم. إلا أن الحدائق الإسلامية ظلت مميزة بطابعها الخاص و التي لا يمكن لمتتبع تاريخ عمارة البيئة (تنسيق المواقع) إلا أن يتوقف عندها و هو يقلب صفحات التاريخ ، كإحدى المراحل التاريخية في الفكر المعماري الإنساني ، والتي تأثرت و أثرت بما حولها. وفي هذا السياق يقرر Tobey أستاذ عمارة البيئة بجامعة ولاية أوهايو تأثير الفن الحدائقي الإسلامي على أوروبا بقوله : " تلقت العناية بالحدائق كشكل من أشكال الفن قوته الدافعة في أوروبا مع نهاية القرون الوسطى من خلال اتصال أوروبا الغربية بالإسلام في إسبانيا و شمال إفريقيا" (Tobey ،1973, ص87).

ومع إدراك الغرب لأهمية التجربة الإسلامية في تصميم الحدائق وكونها الانعكاس الطبيعي للحضارة الإسلامية بمعطياتها الثقافية و المكانية ، حيث لا يخلو كتاب عالمي في تاريخ عمارة البيئة من وصف لهذا الفن الإسلامي المميز. إلا أن هناك الكثير من سوء الفهم في تفسير دوافع بناء الحدائق الإسلامية و الأطر النظرية و الفلسفية خلف تلك التصاميم . ربما أتى سوء الفهم من عدم الإدراك الدقيق لمعطيات الثقافة الإسلامية نفسها ، المحرك الرئيس وراء كل الأعمال الثقافية في المجتمعات الإسلامية .

سيناقش هذا البحث تساؤلاً مهماً يفرض نفسه على كل متابع لتاريخ عمارة البيئة الإسلامي من خلال قراءته للمصادر الغربية، وهو: لماذا توصف الحدائق التي أنشأها المسلمون في الكثير من أصقاع العالم الإسلامي من الكتاب الغربيين بأنها حدائق الجنة ؟ فمن أين أتت هذه التسمية ؟ وهل هذه الحدائق الأرضية هي فعلا ذات ارتباط سماوي بالجنة التي يؤمن بها المسلم ؟ بصورة أوضح ، هل كان تصميم الحدائق الإسلامية تاريخيا منبثقاً عن التصوير القرآني للجنة ؟.

لمناقشة هذه التساؤلات يستعرض هذا البحث مفهوم الجنة في المصادر الإسلامية لتوضيح الدلالة اللفظية للكلمة ومعناها الشرعي . ومن ثم ينتقل إلى استعراض أوجه الربط بين صفة الجنة والحديقة

الإسلامية من خلال ما كتبه من رأوا وجود ذلك الارتباط . ثم يتناول البحث توجهات هؤلاء الكتاب في ربط الجنة الأخروية بثقافة سكان الصحراء . بعد ذلك ينتقل لدحض محاولات الربط بين الجنة والحديقة الإسلامية من الناحية التصميمية ، أي الترابط بين العناصر المكونة لكل منهما ، مثل الأنهار التي في الجنة وما يعتقد أنه يقابلها من عناصر مائية في الحديقة الإسلامية الأرضية ، وكون كل من الحديقة الإسلامية و الجنة ذات أربعة أجزاء . ثم ينتقل إلى بوابات الجنة و أسوارها ومدى ارتباطهما بما يقابلهما في الحديقة الإسلامية . ثم يتطرق البحث إلى موقف الإسلام من المتع الحسية .

أولاً: الجنة في المصادر الإسلامية

جاء الإسلام باللغة العربية و استخدم كثيراً من مفرداتها استخداماً اصطلاحياً للتعبير عن مفاهيم شرعية. ومن تلك المفردات كلمة الجنة . وقد ورد ذكر هذه الكلمة في نحو خمسة وتسعين موضعا في القرآن الكريم ، ست وستون مرة بلفظ المفرد و تسع وعشرون مرة بلفظ الجمع (رطروط، 1989, ص18). والمعنى اللغوي للجنة هو: البستان ، والعرب تسمي النخيل الجنات . (الرازي ،1983, ص 114) . أو هي "كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض ". (الراغب الأصفهاني ، ص 98) وجاء في لسان العرب " والجنة ..مصدر جنّه جنّاً إذا ستره ، فكأنها سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها" (ابن منظور، ج 13ص 100) .

وذكر ابن القيم أن "أصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر و التغطية ومنه الجنين لإستتاره في البطن ، والجان لإستتاره من العيون ... والمجنون لإستتار عقله و توازيه عنه ..." (إبن القيم ، 1999, ص 127). بينما أتى معناها الاصطلاحي الشرعي في القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم قاصداً : جنة الآخرة التي وُعد المتقون . و قد عرّف كتاب (التطور الدلالي بين لغة الشعر و لغة القرآن) الجنة اصطلاحاً بأنها :" الاسم العلم ... للمكان الذي وعد الله عز وجل عباده المتقين "(أبو عودة ، 1985, ص400) . ويستثنى من ذلك إذا ما جاءت في سياق غير سماوي كما في قوله تعالى : "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين و شمال" (سبأ ، آية 151) وقوله تعالى : "كمثل جنة بربوة أصابها وابل فاتت أكلها ضعفين" (البقرة ، آية 265) فالمقصود هنا بستان أرضي . و الجنة إذا ما ذكرت في القرآن و لم يوجد ما يربطها بالأرض فهي الجنة الأخروية .

وقد اختلف العلماء في سبب تسمية الجنة بهذا الاسم ، فيذهب الراغب إلى أن تسميتها بالجنة "أما تشبها بالجنة في الأرض و إن كان بينهما بون ، وإما لسترة نعمها عنا". (الراغب الأصفهاني , ص 98) كما في قوله تعالى :"فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين" (السجدة ، آية 17) . وأرجع ابن منظور سبب

تسميتها بالجنة "لشدة التفافها و ظلالها".(ابن منظور ، ج 13ص 99) و يؤكد ابن القيم هذا المعنى بقوله " ... ولا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الانواع " (إبن القيم ، 1999, ص 127).

مما تقدم يتبين لنا أن الجنة تعني بستاناً أشجاره كثيرة ملتفة تغطي الأرض التي اسفل منها وتسترها، كما يتضح لنا الاشتراك اللفظي في مفردة الجنة بين الحديقتين الدنيوية والأخروية ، ومع أن هناك فرقاً كبيراً بينهما في الطبيعة و التفاصيل و النعيم ، يفيد الاشتراك اللفظي نوعا من المقاربة الاسمية أو النوعية العامة ، حديقة أرضية وحديقة أخروية. ففي القرآن الكريم ورد ذكر كلا النوعين. فإذا أطلقت التسمية من دون ما يربطها بالأرض كانت الجنة الأخروية ، أما إذا ربطت بالأرض فتعني الحديقة أو البستان الأرضي .

ربما كانت هذه المقاربة الاسمية أو النوعية العامة بين الحديقتين النواة الأولى في ربط الكثير من الكتاب الغربيين بين الحديقة الإسلامية الأرضية والحديقة السماوية . و فيما يلي سنستعرض أوجه الربط الأخرى بين الحديقة الإسلامية الأرضية ووصف الجنة .

ثانياً: الربط بين وصف الجنة و الحدائق الإسلامية

يرى كثير من الكتاب الغربيين أن هناك علاقة واضحة و قوية بين مفهومي الحديقة الإسلامية والجنة الأخروية. فهذا رينهارت (Reinhart) في مقاله عن هذا العالم و العالم الآخر في الفكر الإسلامي ، يؤصل معقولية مبدأ الجنة بقوله إن فكرة الحديقة فيما بعد هذه الحياة كمكان مثالي ، هي جزء من كل أديان الشرق الأدنى كما هو الحساب والعقاب ، ويربط ذلك بالبيئة السائدة في هذا الجزء من العالم، حيث يقف الماء والأشجار والظل على نحو استثنائي أمام الصخور ، والسهول المقفرة ، و النباتات الذابلة . (Reinahrt ، 1991 , ص 15).

وبعد أن ضرب أمثلة عن جنة دلمون لدى البابليين و حدائق ما بعد الحياة لموتى المصريين ، أضاف بأن هذا المفهوم تم استخدامه في الإنجيل، حيث بدأ آدم و حواء مهمة الإنسانية في " حديقة في عدن وهي في الشرق ...بها كل نوع من الشجر اللافت للنظر والطيب للأكل .." (Reinahrt ، 1991 , ص 15).

ومع ذلك فانه يؤكد بأن الحديقة ، ويقصد بها الجنة ، في التراث الإسلامي كانت أكثر بروزا منها في النصرانية واليهودية . فقد كانت الحديقة في الإسلام هي الصورة الأهم كجزاء عن الفضيلة . و يضيف بأن بروز الحديقة أي الجنة كموضوع أدبي وفني و أخلاقي في الثقافة الإسلامية يقع في النهاية على بروزها في القرآن ، كلمة الله التي أوحاها إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم في أوائل القرن السابع في الجزيرة

العربية . (Reinahrt ،1991, ص 15). إن هذا البروز الواضح لمفهوم الجنة في القرآن الكريم ، والذي يؤكده تكرار مفردة الجنة كما أوردنا أعلاه قد أدى إلى أن يذهب كثير من الكتاب الغربيين إلى تفسير فلسفة الحدائق الإسلامية بأنها منطلقة من مفهوم الجنة و التي وردت بعض أوصافها في القرآن الكريم ، وانطلاقا من هذا التفسير ربطوا جنان المسلمين الدنيوية أو حدائقهم مع الجنة الأخروية وهذا تصور خاطئ وقاصر. وقد عبر عن هذه العلاقة أحد الكتاب في وصفه للحديقة الإسلامية بقوله : " إلى جانب كونها ملاذا من الواقع و حماية من الطبيعة الموحشة، هدفت الحديقة الإسلامية بصورة عامة لتمثيل الجنة الدينية بصورة واضحة أو أقل وضوحا ." بيتروسيولي (Petroccioli، ص 354). فذهب بعضهم إلى القول إن الحدائق الإسلامية ما هي إلا أنموذجاً مصغراً للجنة الأخروية (Shirvani،1985، ص 25) (Taylor ،1983, ص 2). وذهب آخرون إلى أن الجنة الإسلامية الأرضية هي نوع من الانعكاس و الحدس أو التوقع لما ستكون عليه الجنة الأخروية (Dickie، 1976، ص 90).

وكلا الرأيين لا يستقيم ، فالأول الذي يرى أن الجنة الدنيوية ما هي إلا أنموذجا مصغرا للجنة الأخروية قد يوصي بفرضية أن كلا الجنتين الدنيوية والأخروية متماثلة من جميع الوجوه عدا المقياس في أبعاده الثلاثة . وهذا مناف لنصوص القرآن والسنة الصريحة في تفصيلاتها حول أوصاف الجنة السماوية التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) رواه مسلم، ومعرفتنا التجريبية لطبيعة الحديقة الأرضية و إمكانياتها المحدودة . أما الرأي الثاني فيفترض عدم الإدراك لما ستكون عليه الجنة ، وأن الحديقة تساعدنا في محاولة إدراك كنه تفاصيل الجنة ، أو هي محاولة من الإنسان لتجسيد الجنة السماوية على الأرض. و هذا مستحيل ، لعدم إمكانية شمولها على ما ورد في القرآن والسنة من مناعم الجنة الأخروية .

في حقيقة الأمر لا تخلو هذه الفلسفة في ربط الحدائق الإسلامية بالجنة الأخروية من مبالغة ، كما أنها لا تخلو من المغالطات والثغرات . من هذه الثغرات عدم اتفاق الآراء في الربط بين الحدائق الإسلامية و الجنة مع ما ورد في المصادر الإسلامية نفسها ، حيث النصوص الصريحة التي تقفل باب المقاربة والتشابه بين العالمين ، وتجعل التفكير في هذا الاتجاه أمراً صعبا جداً . ففي الحديث الشريف الذي رواه البخاري : "... لقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا و ما فيها ..." (العويد،1999, ص 116) وكمثال بسيط على الفرق بين ما هو جنائني سماوي وما هو أرضي ما ورد في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم : " أن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا ، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا " (الجمل ، ص 67) . وكذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في وصف الشجرة التي في الجنة : "إن في الجنة لشجرةً ، يسير الراكب في ظلها مِائَةَ عامٍ لا يقطعها"(المقدسي

،2002 , ص 86) . والحديث الآخر الذي أخرجه الترمذي : " ما في الجنة شجرة إلا وساقها مـن ذهـب " (المعوشرجي ،1984, ص 18) وهكذا فإن كثيراً من أوصاف الجنة هي مما يستحيل تقليده على وجه الأرض . ففي قول لابن عباس رضي الله عنه في هذا السياق : " ليس في الدنيا ممـا فـي الجنـة إلا الأسـماء " . (الطهطاوي ،1989، ص 35) . أي كما رأينا من الأحاديث السابقة هناك خيم و أشجار على الأرض وكذلك في الجنة إلا أنها تشترك في الأسماء فقط و شتان بينها في الصفات . و إضافة إلى هذه الطبيعة المختلفة لما في الجنة عما هو أرضي فإن هناك أوصافا ظلت مغيبة عن الناس ، أي أننا ومع الأوصاف العديدة للجنة في القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة فإننا لا نعلم كل ما تحويه الجنة من نعيم لقوله تعالى : "فلا تعلم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين" (السجدة ، آية 17) ، والتي تؤكد المعنى الوارد في الحديث الذي رواه البخـاري والذي يؤكد على أن النعيم في الجنة يفوق كل الأوصاف المعروفة : " ... أعددت لعبادي الصالحين مـالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر..." (الأشقر ،2000, ص 117) . فإن استطعنا تقليد ما نعلم ، على الرغم من استحالة ذلك ، فكيف لنا أن نقلد مالا نعلم .

وهذا أحد الكتاب يؤكد ما ذكرناه أعلاه من البعد بين الجنتين . فبعد أن أورد الآيات و الأحاديـث التي تصف الجنة ، قال إن الإيضاحات المبالغ فيها عن الجنة القرآنية تبعد العالم الأخروي عن هذا العالم . وأضاف بأن هذه التشبيهات التمثيلية العجيبة لهذا العالم بالعالم الآخر و لصفات جسم الإنسان بين العـالمين ، تجعل اليوم الآخر أكثر بعداً و ليس قربا . (Reinahrt ،1991, ص 17،18). ويقصد بذلك أن ربط أشياء الجنة بأشياء الدنيا على تشابه الأسماء كانت تعمل ضد التقارب الفعلي بين العالمين للفروقات في كل منهمـا والواضحة في الآيات و الأحاديث . ويضيف أنه في بعض الأحيان يعكس الحديث ببساطة عدم الفاعلية لدى اللغة الدنيوية ، لأنه حتى الوقت المحدود في الحديقة ، ويقصد بها الجنة ، هو أفضل من الدنيا و ما فيهـا. ففي الحديقة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، و ما يبدو لأول وهلة تمسكاً بـسيطا بالمعنى الحرفي هو في الحقيقة محاولة لإثبات العجز البلاغي حين التحدث عن العـالم القـادم (Reinahrt ،1991, ص 18).

أما عن سعة انتشار الحدائق كشكل من أشكال الفن في العالم الإسلامي سـواء علـى المـستوى الاجتماعي، أي طبقات المجتمع المختلفة، أو على المستوى الجغرافي ، أي العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، فيرى إتينجوسن (Ettinghausen) أن من أهم العوامل التي تفسر هذه الظاهرة هو مفهوم الجنـة كجزاء للمسلم الصادق ، وهذا المفهوم كما يراه هو أكثر من مجرد رؤية تجريدية للنعـيم المـستقبلي . لأن الرسول [ص] قال نصوصا كثيرة و محددة لما ستكون عليه أرض الجنة و طبيعتها و كذلك سكانها. ومنـذ ذلك الحين فإن تلك الأوصاف لعبت دورا هاما في عقيدة المسلم و فهمه للعالم (Ettinghausen, 1976,ص

6). وهو محق فيما ذهب إليه من نفيه أن تكون الجنة مجرد رؤية تجريدية للنعيم المستقبلي ، حيث أنه استند إلى المصادر الإسلامية التي ليس فيها لبس في إثبات نعيم الجنة كنعيم حقيقي حسي وملموس. وكأنه بهذا النفي للنعيم التجريدي في الجنة ، يرد على بعض الكتاب المهتمين بفلسفة الحديقة الإسلامية ، وهم أولئك الذين لديهم قناعة غريبة بأن الحديقة الإسلامية الأرضية هي مجرد واسطة روحية على الأرض للاتصال بالجنة السماوية ذات النعيم التجريدي ، كتلك الأفكار التي أوردها رالف بلاكستد في مقالته التي عنوانها "ما هي الحديقة الإسلامية : أين الجنة ؟" بلاكستاد (Blakstad ،1986, ص 20–22).

أما فيما يتعلق بالجنة كسبب وراء سعة انتشار الحدائق كشكل من أشكال الفن في العالم الإسلامي سواء على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الجغرافي ، فنقول هنا إن الإسلام أوجب على المسلم عمارة هذه الأرض ومن ذلك الغرس و إنشاء البساتين . ويجب أن لا نعزو هذا الانتشار إلى ما في الجنة من نعيم ومحاولة محاكاته دنيويا .

ينطلق الإسلام في نظرته المحددة لطبيعة الجنة وسكانها من أن الإنسان مفطور بطبعه على حب المتع الحسية التي منها الحدائق. والإسلام واضح هنا. إذ لا يمانع في هذه المتع . ولهذا كانت الحدائق مقبولة في الدنيا واستخدمت كجزاء على العمل الصالح في الآخرة . وكونها استخدمت كجزاء في الآخرة لا يقلل من شغف الناس بها في هذه الدنيا . لربما كان تشريع القرآن لهذه المتع دنيويا ، أي إقراره لها بضوابطها الإسلامية ، هو السبب الجوهري وراء انتشار الحدائق لا لأن الجنة ذكرت كثيرا في القرآن ، على العكس من مجتمعات أخرى غير إسلامية كانت تنظر إلى بعض المتع الدنيوية على أنها غير شرعية . أضف إلى ذلك تجريب الإنسان لهذه المتع على الأرض ، مما جعله يقتنع بحاجته إليها لكونها وسيلة مهمة في اكتمال راحته وإدخال السرور إلى نفسه .

ثالثاً : الجنة و الطبيعة الصحراوية

قلل بعض الكتاب من مثالية الجنة الأخروية بتصويرها على أنها جنة سماوية أتت استمتزاجا لما يراه سكان المناطق القاحلة أو الصحراوية من نعيم يتناسب مع فكرهم ومعطياتهم الثقافية والبيئية . سنناقش في هذا الجزء من البحث ما ينتاب هذا التصور من إشكاليات لعل أبسطها أن الجنة أتت ممن خلق السماوات والأرض بصحاريها ومناطقها الباردة ، إضافة إلى أنها الجنة مثالية في مناخها بنص القرآن ، بعيدة عن التطرف سواء للبرودة أو إلى الحرارة .

ففي سياق هذا الطرح يجمع الكثير من الكتاب الغربيين (Stiny and Mitchell ،1980، ص209) Hanaway ,1976, ص 44) (Reinahrt , 1991, ض 15) على أن الجنة الأخروية هي فكرة معقولة لأناس من الصحراء ، أي لسكان الصحارى القاحلة فقط . و يفصل Reinahrt في نظرته إلى هذه المسألة ولكن من منظور جغرافي ضيق ، عندما ذكر أن كل أديان الشرق الأدنى تؤمن بمفاهيم الحساب و العقاب و الجنة ، لاسيما عندما ربط ذلك بالبيئة السائدة في ذلك الجزء من العالم حيث يقف الماء والأشجار والظل على نحو استثنائي أمام الصخور ، والسهول المقفرة ، و النباتات الذابلة .(Reinahrt ،1991, ص 15).

ألا يدعو ذلك للتساؤل عن مدى تأثير الأديان السماوية والأنبياء والرسل الكثر الذين ظهروا في هذه المنطقة الصحراوية جغرافيا على هذا التوجه؟ . إذ إن هذه الأديان مرتبطة بمفاهيم مشتركة. ولا يعني نشوؤها في المنطقة الجغرافية نفسها بالضرورة أن سبب الاشتراك في المفاهيم هو البيئة و الجغرافيا . بل لأنها من المصدر نفسه، أي لأنها في الغالب أديان سماوية ، أو تأثرت بالأديان السماوية التي سادت تلك المنطقة الجغرافية ، وهو أقوى المؤثرات في الاشتراك بمفهوم الجنة . وهنا ألا يحق لنا أن نتساءل: هل يمكن للبيئة والجغرافيا حيث يقطن بعض المخلوقين أن تكون هي السبب في خلق طبيعة الجنة؟! ثم ما الذي يجعل الجنة كمفهوم أن تكون أكثر ملاءمة لسكان الصحراء من غيرهم ، ألا يريد سكان المناطق الخضراء أو غير الصحراوية الحدائق والمناعم الكثيرة التي في الجنة : من طعام وشراب و اعتدال مناخ : لا برد ولا حر ، وجمال حوريات وفوق ذلك كله الخلود ! . ما الصحراوي في كل ذلك ؟ .

كذلك أكدا Stiny and Mitchell هذا الارتباط المزعوم بين الجنة وعقلية سكان الصحراء . حيث يريان أن الجنة تعيد إلى الذهن ثقافة قاطني الصحراء الذين يفهمون الحديقة على أنها مكان محمي و معزول عن المحيط غير الودي . (Stiny and Mitchell ،1980, ص 209) . وهذا يقودنا للتساؤل عن وجه الشبه (كما يعتقدون) ، هل لأن الجنة ذات أبواب تغلق ؟ وبما أنها موصدة عمن لا يستحق أن يدخلها ؟ ، هل هذا كاف في عرفهم لجعلها تنتمي إلى البيئة الصحراوية وأنها تشاكلت مع المثال الأرضي الصحراوي الذي يستطيع قاطنو الصحراء استيعابه.

ولعل Hanaway يضع بعض النقاط على الحروف في هذا السياق حول ما يدعو هؤلاء الكتاب إلى أن يربطوا نعيم الجنة بالعقلية الصحراوية والحديقة الأرضية الصحراوية . حيث يشير إلى أن المفهوم الشاعري للحديقة الأرضية له جذوره في حديقة الجنة الموصوفة في القرآن . ويضيف بأن القرآن لا يصف الجنة بتفاصيل شاملة ، ولكنه يركز على المباهج البارزة التي تنتظر المؤمن هناك . ويورد آيات كثيرة

تصف نعيم الجنة ويخرج منها بقوله : " لقد تم التركيز على الخصائص الفيزيائية للجنة مثل الأغصان الكثيرة ،والظل ، والعيون الجارية، و فواكه لا تنقطع ، والخيام الباردة ، والأرائك ، واللباس الجميل و الذهب ، والحور الجميلات الأبكار . ثم قال بعد ذلك : "إن كل هذا يبدو بحق كجنة لأناس من الصحراء" (Hanaway ،1976, ص 44، 45). ويشاركه Lehrman الطرح نفسه لأوصاف الجنة الإسلامية ولكنه يورد دليلاً إضافيا على أن هذه الجنة ترتكز على مفهوم الواحات لأناس من الصحراء بسبب ندرة ذكر الزهور فيها (Lehrman،1980, ص 31).

فلربما ينطلق هؤلاء الكتاب في محاولتهم ربط الجنة بالعقلية الصحراوية من زاوية أنهم ينتمون إلى مناطق أفضل بيئيا ، وأكثر خضرة وأكثر برودة من مناطق المسلمين الذين في الغالب يسكنون المناطق القاحلة أو شبه القاحلة . وتبعاً لذلك فهم يعتقدون أن بيئاتهم بتلك الصفات تقترب من جنة المسلمين الأخروية (حاشا وكلا). أي أنهم ينعمون دنيويا بما يشتاق إليه المسلمون أخروياً !.

وهنا يجب أن نتساءل ، هل الجنة غير مناسبة كعقيدة لمن يعيشون في مناطق خضراء أو غير قاحلة . ألا تمر كثير من هذه المناطق الخضراء بفصول غير مناسبة ، فالمناطق الخضراء الباردة تكون ذات برد قارس وثلوج وأحوال جوية شديدة القسوة في فصل الشتاء ؟ ، أي على النقيض من الأجواء الصحراوية ولكنها تشاركها التطرف نفسه . و حتى مناطق الغابات الخضراء في المناطق الاستوائية أو شبه الاستوائية ومع أنها خضراء ، تفتقد الطقس الجميل حيث تسودها الرطوبة العالية وارتفاع في درجات الحرارة . فكلتاهما تفتقد إلى الأجواء المثالية التي توجد في الجنة ، مثلهما في ذلك مثل الصحارى عند الآخرين . فالقرآن يصف الجنة ببعدها عن كلا هذين النقيضين البرودة والحرارة ، أنظر لقوله تعالى : "لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ". (الانسان ، آية 13)

هذه الآراء التي تود أن تقول إن الجنة كتصور مناسبة لأهل الصحراء فقط لا تخلو من إشكالية ومغالطات، كما أن فيها تعميماً مبالغاً فيه ، و يفتقر إلى ما يؤيده من أدلة . فلنعيم الجنة ملامح كثيرة وليست مقصورة على المناخ و الخضرة فحسب لنتوقف عندهما وننسى بقية ملامحها الموصوفة في القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة . فقد عرف أحد الكتاب المسلمين نعيم الآخرة بأنه : " ما أعده الله لعباده المؤمنين في الجنة من عيش رغيد طيب وطمأنينة وسعادة ، لايشبهها شيء في الدنيا ، وفوق ذلك رضوان الله عليهم ، ورؤيتهم له سبحانه . " (رطروط ، 1989, ص 110) . أنظر لقوله تعالى : " يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم " (التوبة ، آية 20) .

لاشك أن نظرة التضييق هذه في زاوية النظر إلى نعيم الجنة وتعظيمها فقط في اتجاه البرودة المناخية وما يلحق بها من ملامح تعتبر نظرة قاصرة لن تجعل من الجنة أكثر قربا في تصورها من الحديقة الأرضية، لاسيما لدى من ينظرون إلى النصوص الإسلامية بشمولية وتوازن .

رابعاً : الحديقة الإسلامية وارتباطها مشاكلةً بالجنة من الناحية التصميمية

الحديقة الإسلامية :

يعرف الغربيون حدائق الجنة الإسلامية بأنها حدائق تتسم بالتناظر مقسومة إلى أربعة أجزاء بجداول مائية تنطلق من نافورة وسطية حيث الأجزاء الأربعة تمثل أجزاء الجنة الأربعة ، و هي فارسية الأصل تعود إلى الـ "شارباغ" ، أي حديقة رباعية بالفارسية . (Morrow ،1987, ص230) (Petroccioli، ص 363). (الأشكال 2,1) .

وتضيف Clark بعض التفاصيل فيما يتعلق بهذا التصميم الإسلامي للحديقة والخلفية الفلسفية وراءه. فتقول إنه أتى من المزج بين النموذج الفارسي و حديقة الجنة . (Clark ،1996, ص 2). إلا أن هؤلاء الكتاب لم يحددوا ما هو فارسي وما هو إسلامي في الحديقة الإسلامية ، وما هي نسب المزج بين هذين الأنموذجين ، وأين يقف أحدهما ليبدأ الآخر . الحقيقة يخلط هذا التناوب بين الأنموذجين الأوراق ، ولعل هذا الخلط و التعميم يساعد من يحاولون جدلاً ربط الحدائق الإسلامية الأرضية بالجنة على تفسير بعض التناقضات بين ما يرونه من نظريات وبين النصوص القرآنية و الأحاديث الصريحة ، التي لا تتجاوب مع تلك النظريات كما سنرى فيما يلي .

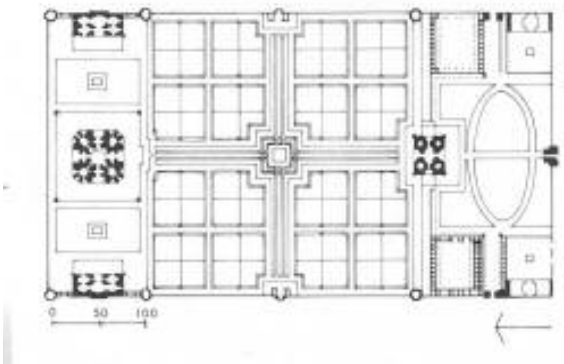

شكل (1) : مسقط أفقي لتاج محل حيث الحديقة في الوسط وفي مركزها حوض الماء المرتفع تنطلق منه قنوات الماء في الجهات الأربع لري الحديقة وتقسمها إلى أربعة أقسام ، أي حديقة رباعية .

المصدر: (Michell ، 1978, ص266).

شكل (2) : منظور لتاج محل من الحديقة إلى المبنى .

من إعداد الباحث من صورة لـــ : (Copplestone ، 1977,الشكل 458, ص 166).

رباعية الحديقة الإسلامية :

كتبت Clark و هي أحد المهتمين بهذا المجال، ما يلي لتأكيد رباعية الحديقة الإسلامية . أولاً حديث معراج الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وصف ا لجنة ، و أن بها أربعة أنهار . ثم تعود لسورة الرحمن و تقول إن في الآخرة جنتين و من دونهما جنتين، أي أن هنالك ما مجموعه أربع جنات وفي كل منهما عينان (Clark ،1996, ص 2). و يؤكد ابن القيم على أن السياق في سورة الرحمن حيث ورد لفظي "جنتان" و"ومن دونهما جنتان" يدل على تفضيل الجنتين الأوليين وساق عشرة أدلة تدل على ذلك التفضيل . (ابن القيم،1999, ص 136) وساق أيضاً الحديث الشريف الذي في الصحيحين ويؤكد الفرق بينهما "جنتان من ذهب آنيتهما و حليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما و حليتهما و ما فيهما " (ابن القيم ، 1999, ص 135).

يضيف Schimmel أن حاسة الخيال لدينا تصبح حائرة عند ذكر "جنتان" في سورة الرحمن، وأن فيهما عينين جاريتين ، ونوعين من كل فاكهة ، وأن هذا الوصف القرآني أعطى مجالا لمحاولات تفصيلية لاستنتاج جغرافية الجنة بحيث تناسب ذكر جنتين مرتين . ويصل من ذلك إلى الربط بين الجنة والحديقة الإسلامية حين قال :" قد لا نكون مخطئين عند تفسير التصميم الرباعي للعديد من الحدائق الملكية ، والمسماة عادة شارباغ بأنه أتى كنتيجة لمحاكاة حدائق الجنة الأربعة " (Schimmel ،1976, ص 17،18).

وتؤكد Clark أهمية أن الحديقة الإسلامية ذات الأجزاء الأربعة ليست مجرد نزوة أو هوى تصميمي و لكنها عكس لحقيقة أعلى (كما يزعمون) . و هكذا فإن الشارباغ أصبحت الرمز الأساسي لحدائق الجنة القرآنية والتي نقلت وطورت في جميع أنحاء العالم الإسلامي. ففي أصفهان هناك شارع الشارباغ ، وفي الهند حدائق تاج محل ، وفي إسبانيا أفنية قصر الحمراء وحدائق جنة العريف (Clark , 1996، ص 2) (أنظر الأشكال 3، 4).

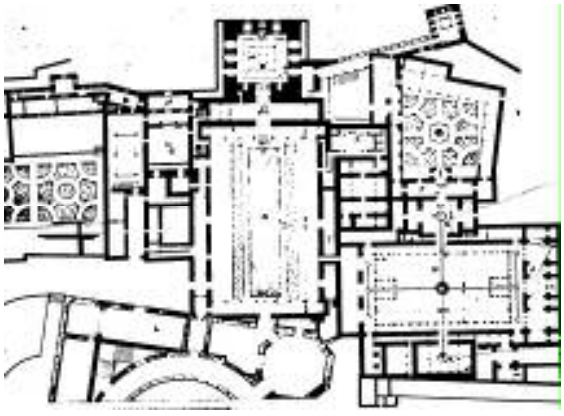

شكل 3:مسقط أفقي يوضح أفنية قصر الحمراء و ليس فيها حدائق رباعية عدى فناء الأسود ، يمين أسفل الشكل .
المصدر : (Newton ،**1981**, ص **43**) .

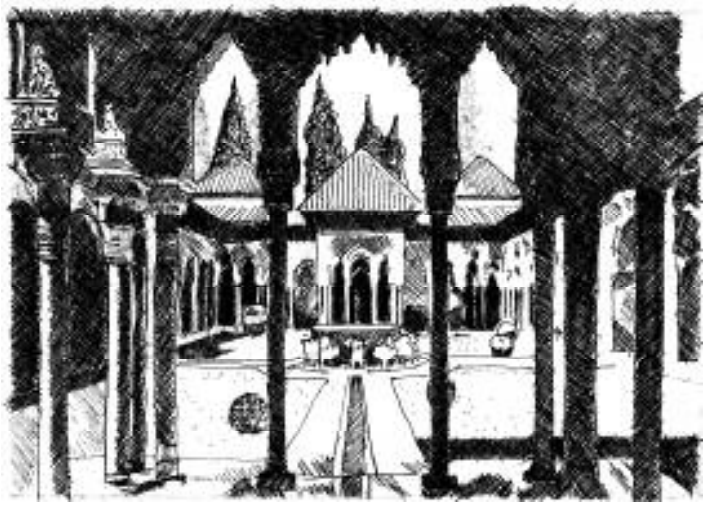

شكل 4 : منظور لفناء الأسود بقصر الحمراء من إعداد الباحث ، حيث نافورة الأسود في الوسط والقنوات الأربع المتصلة بها تقسم الحديقة إلى أربعة أقسام متناظرة .

ومع أن الحدائق الإسلامية ليست كلها حدائق رباعية بالمعنى الذي يصفه هؤلاء الكتاب ، ولا أدل على ذلك من حدائق قصر الحمراء الواضحة في (شكل 3) أعلاه ، إذا استثنينا منها فناء الأسود . إلا أن هؤلاء الكتاب وجدوا ضالتهم في الربط بين وصف الجنة و الحديقة الإسلامية إن كانت رباعية كالتي في تاج محل أو فناء الأسود ، ووصفوها بأنها وريثة الـــ شارباغ الفارسية من جهتين . الأولى عدد أنهار الجنة، ولأنها أربع فهي تتفق مع قنوات الري الرئيسية في الحديقة الرباعية . وهم بذلك يتناسون الجانب الوظيفي لقنوات المياه. ولأنها صممت على هذا النمط لتناسب ري الحديقة المستطيلة أو المربعة الشكل . وبما أن تقاطعات القنوات الأربع تؤدي إلى تقسيم الحديقة إلى أربعة أقسام، فهذا يؤدي بدوره إلى تأكيد الجهة الثانية مما ذهبوا إليه ، وهو أن في الجنة أربع جنات والتي وجدوها في سورة الرحمن حيث كررت جنتان مرتين أي ما مجموعه أربع جنات.

وهنا يقعون في إشكالية إذ تناسوا الفروق بني الجنتين السماويتين الأوليين و الأخريين اللتين يفترض أنهما دونهما (سواء في الفضل أم في الدرج أم في القرب) ، وذلك عندما تم إسقاط صورة تلك الجنان على الحديقة الرباعية الأرضية . فالحديقة الإسلامية التي يفترض –حسب رأي هؤلاء الكتاب– أنها انعكاس للجنة السماوية لم تراع تلك الفروق في المستوى التي نُص عليها في سورة الرحمن ، وأوردنا ما ذكره ابن القيم في الفروق بينها. حيث اعتمد التناظر بين أجزاء الحديقة الأرضية الأربعة ولم تفرق أجزاءها الأربعة إلى مجموعتين كل منهما تنتمي إلى مستوىً مغاير ليلائم ما ورد في السورة . ويرى الباحث: أن هذا يدل على ما ذهب إليه هؤلاء الكتاب من انتقائية في استخدام الوصف القرآني للربط فقط ما بين الحديقة الأرضية ووصف الجنة وصفاً مجرداً حيث أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يركز البحث الآن على موضوع الماء في الحديقة الإسلامية لما له من ارتباط وثيق برباعية الحديقة. لذا سيتم مناقشته بالتفصيل في الجزء التالي .

الماء بين الجنة والحدائق الإسلامية:

الماء موجود في الحدائق الإسلامية كأهم العناصر التي يهتم بها المصمم ، لأسباب مبررة نفـــسية وحسية جمالية ووظيفية أيضا . ومع ذلك ، أضاف وجود هذا الماء في الحديقة الإسلامية عاملا آخر نحـــو بلورة الارتباط بين الحديقة الإسلامية ووصف الجنة . إذ إن من يرى ذلك الارتباط بين الحديقتين الأرضـــية والسماوية قد أستفاد من تركيز الآيات القرآنية في وصف الجنة على الماء ، حيث تكرر النص القرآني "جنات تجري من تحتها الأنهار" كثيراً .

ومع بعض الإشكاليات في إسقاط النصوص القرآنية لتتواءم مع هذا الارتباط شبه القسري بين وصف الجنة والحدائق الإسلامية إلا أن أصحاب هذه الفكرة يحاولون جاهدين إقناعنا بهذا التوجه . ففي سورة محمد آية 15 ورد ذكر الأنهار بصيغة الجمع : "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين و أنهار من عسل مصفى " . أي هنالك الكثير من الأنهار التي تصنف بالنهاية إلى أربعة أنواع رئيسة . هذه الأنهار إذاً ليست أربعة من الأنهار المفردة لتناسب ما ذكرناه سابقاً من استنتاج Schimmel الذي ذكر فيه : أن فكرة الأنهار الأربعة و التي تجري في الجنة ربما تكون قد ساعدت المعماريين المتأخرين في تصور القنوات و هي تجري خلال الحدائق في إيران و الهند المغولية (Schimmel ،1976, ص15) .

وبما أن عدد هذه الأنهار ليس بأربعة فقط ، فإن هذا لا يساعد التصور الذي يسوقه أنيماري شمل من أن المعماريين المتأخرين ربما ربطوا قنوات الماء في الحديقة الإسلامية بأنهار الجنة تصوراً. علاوة على ذلك، أين العينان اللتان ذكرتا في سورة الرحمن مرتين أي ما مجموعه أربع عيون ، أين هذه العيون الاربع في الحديقة الإسلامية الأرضية حيث عادة ما توضع عين ماء واحدة فقط في الحديقة الإسلامية؟ . فهل نقتطع بعض الجزئيات من صورة الجنة القرآنية لنسقطها على الحديقة الإسلامية الأرضية و نترك صوراً أخرى؟ هل هذه الانتقائية مقبولة في هذا السياق ؟ الإجابة على ذلك : حتما لا ! (أنظر الشكل 5) .

نعود مرة أخرى إلى القول: هل حقا إدخال المصمم الماء بقوة في تصميم الحديقة هو بناء على تأثير تلك الآيات؟ .وان كانت الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب نسبياً .إلا أنه من الصعوبة بمكان القفز إلى هذه النتيجة دون دليل ملموس على أحاسيس المصمم . فهنالك حضارات أخرى كثيرة استخدمت الماء في حدائقها وليس لديها الوصف القرآني المفصل نفسه الذي لدى المسلمين . ألا يخضع ذلك الاستخدام المكثف من المسلمين إلى التجربة الميدانية الإنسانية، وأن هذا الاستخدام يستجيب للرغبات النفسية المحسوسة سواء أكانت بصرية أم مناخية ؟ ثم ألا يمكن لكثير من الحضارات استنتاج أهمية الماء في الحديقة و أثره المحسوس والنفسي على مستخدميها ؟ . طبعا يمكنها ذلك إذا لم يكن لديها من قيود مسبقة ، دينية كانت أم ثقافية ، على شرعية إمتاع الإنسان في هذه الدنيا كالدين الإسلامي .

عين واحدة

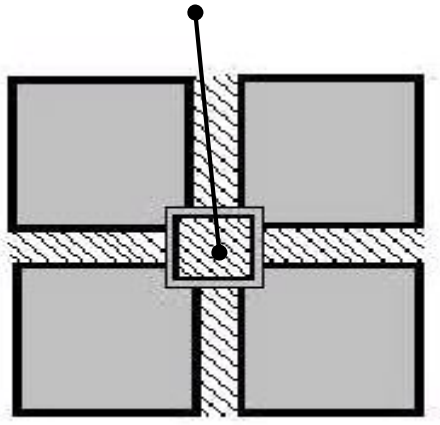

الحديقة الإسلامية الرباعية

شكل (5) :جاء ذكر أربعة جنات في سورة الرحمن ، وفي كل جنتين عينان ، أي هناك ما مجموعه أربع جنات وأربع عيون. بينما لا تحوي الحديقة الإسلامية الرباعية عادة إلا عيناً واحدة.

بوابات و أسوار الجنة :

أما الرابط الآخر ، إذا ما ابتعدنا قليلا عن شكل الحديقة وتقسيمها الرباعي وقنوات الماء فيها، فهو بوابات وأسوار الجنة . فمن يريدون الربط بين وصف الحديقة السماوية و الحديقة الأرضية يذكروننا دائماً بأن الجنة على أتساعها، حولها أسوار. حيث يذكر القرآن أن لها أبواباً (Schimmel ،1976, ص16)

فإذا سلمنا أن إثبات الأبواب يثبت الأسوار كنتيجة تلقائية ، فهذا يعتبر في عرف من يريد إثبات الارتباط بين الحديقة السماوية والحديقة الأرضية دليلاً آخر يؤيد مذهبه . ولكن هل يمكننا أن نغض الطرف في هذا السياق عن الجانب الوظيفي لأسوار الحديقة الأرضية وبواباتها، وهل يمكن أن نتصور الجانب الوظيفي نفسه بالنسبة للحديقة السماوية ، لا سيما إذا علمنا حدود سعة تلك الأبواب ، ففي الحديث الذي رواه مسلم : " ... أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة و هجر أو كما بين مكة و بصرى " (رفيع الدين ،2003, ص 19) . كما وردت أحاديث في صحيح مسلم بأن سعة الباب مسيرة أربعين عاما . (بالي ، 1994, ص 31، 14).

ولربما كان عدد أبواب الجنة هو الأقرب إلى الذهن لو كان قصد مصممي الحدائق الإسلامية هو محاكاة وصف الحديقة السماوية ، أي جعل عدد أبواب الحديقة الأرضية ثمانية أبواب لتتماشى مع أبواب الجنة التي وردت في الحديث الذي رواه البخاري و مسلم : " في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون " . (المعوشرجي, 1984 ، ص 11) . ولكن أصحاب نظرية الربط غضوا النظر عن عدد الأبواب لأن ذلك يناقض إثبات الارتباط بين الجنة و الحديقة الإسلامية ، حيث أن معظم الحدائق الإسلامية لم يكن لها هذا العدد الكبير من الأبواب ، لأنها غير مبررة وظيفياً .

ولعل الكتاب الغربيين تأثروا بمفهوم كلمة الجنة في اللغة الإنجليزية وأصلها. حيث يمكن تتبع أصل الكلمة الإنجليزية paradise عبر اللاتينية و الإغريقية إلى الفارسية القديمة ، حيث تعني "Paire" حول و "daeza" جدار (Stiny and Mitchell ،1980, ص 209) . لذا فإن الجنة في المفهوم الغربي ذات جذور في المفهوم البسيط للحديقة المسورة . ولكن شتان بين هذا المفهوم الأرضي للحديقة والمفهوم الإسلامي السماوي للجنة الأخروية .

نمط التصميم بين وصف الجنة والحدائق الإسلامية :

لابد أن نتساءل هنا ، هل استلهم فعلا مصممو الحدائق الإسلامية التاريخية الآيات والأحاديث ذات العلاقة وحاولوا تجسيدها كواقع ملموس على الأرض ؟ ، إن هذا لتساؤل كبير يحتاج للإجابة عليه إلى أدلة مقنعة لسبر أغوار عقول أولئك المصممين و كيف كانوا يفكرون عندما وضعوا خطوط تصاميمهم على الورق قبل وضع أدواتهم على الأرض لتنفيذها ، ناهيك عن مدى إمكانية عملهم ذلك من عدمه . فالبون شاسع بين ما هو أرضي و ما هو سماوي لا يعلمه إلا الله .

ولزيادة البعد بين العالمين الأرضي والسماوي ، هل يحق لنا في هذا العصر أن نتساءل عن خلق الجنة؟ هل هي ذات نمط طبيعي أم ذات نمط هندسي متناظر ؟ سؤال ربما كانت الإجابة عليه من المصممين المسلمين في تلك الفترة ستؤدي إلى جعل الحدائق الإسلامية التاريخية التي ننظر إليها اليوم أقرب للحدائق الرومانسية الإنجليزية أو لربما الحدائق اليابانية ذات الخطوط الطبيعية . فقد تكون خطوط الحديقة و أنماطها في سلم الأولويات أهم من شكل العنصر المائي المجسد للأنهار الأربعة ، إن كان المصممون أرادوا فعلا ذلك التجسيد .

إضافة إلى ذلك ، هل يجب أن نمثل لأنهار الجنة أرضياً بجداول مائية متقاطعة ومتناظرة وذات مقطع ثابت؟ . فمن أين استلهمت فكرة الأنهار الأربعة في الجنة على أنها متقاطعة أو حتى مستقيمة ، مع أن

النصوص الإسلامية لا تعطي وصفاً دقيقاً لأنهار الجنة من الناحية النمطية التصميمية ، كأن تكون تلك الأنهار متقاطعة أو مستقيمة و ذات مقطع ثابت ؟ . لماذا لا يكون فيها شبه من الممرات المائية الطبيعية الجميلة التي تشق سطح الأرض تبعاً لسلسة من العوامل الجيمورفولوجية المتتابعة واللامنتهية ، كصلادة الحجارة وتماسك التربة وطبوغرافية الموقع في تشكيل طريقها. فعلينا أن لا نحمل النص القرآني فوق ما يتحمله من المعاني والصور الغير واضحة لأن ذلك فيه إقحام في علم الغيب.

من جهة أخرى ، هل لنا أن نتصور أن تكون أشجار الجنة ونباتاتها ذات أشكال هندسية كما في الحدائق الفرنسية التي نعرف طرازها كما هي الحال في قصر فيرساي حيث " فرض الإنسان مفهومه في الانتظام على الطبيعة إلى درجة التشكيل الهندسي لأحواض الزهور والشجيرات والأشجار التي نحتت حسب الشكل المطلوب " (Taylor ،1983, ص 21) . و إذا كان ذلك مستبعداً نظراً للمعنى اللغوي لكلمة الجنة و الذي مر بنا سابقا ويفيد شدة الالتفاف والإظلال . فلماذا يجب أن نتصور الاستقامة و التناظر في تمثيل أنهار الجنة . بعبارة أخرى ، لماذا نقبل فكرة الطراز الهندسي والمتناظر بالنسبة للممرات المائية في الحديقة الإسلامية ولا نقبل ما يتناسب مع ذلك من أشكال هندسية للعناصر النباتية .

ولعل هذا يقودنا بالتالي إلى أن نخلص إلى القول إن نمط الحديقة الإسلامية باعتبارها أرضية ، جاءت لتخضع إلى عوامل وظيفية ضرورية ليست مطلباً في الحديقة السماوية . فالأمور هناك في الجنة لا تخضع للمقاييس الأرضية . و من ذلك قنوات الري الوظيفية اللازمة أرضياً لسقي الحديقة كي تنمو .

الربط لدى الشعراء :

في إطار وصف الحدائق الإسلامية الأرضية ، أسهب الشعراء في وصف الحدائق. و للرفع من شأنها قاموا بتشبيهها بحدائق الجنة . فهل الاستعارات والتشبيهات الشعرية لبعض شعراء البلاط في ذلك الزمان بين أجزاء الحديقة الملكية و الجنة كاف في إثبات الترابط بين الحديقتين الأرضية والسماوية ، ولو كان ذلك على سبيل المجاز المبالغ فيه ؟ ولتصور ضعف ذلك التشبيه المرفوض شرعاً، فهل خزان ماء الحديقة الأرضية المركزي يقابل الحوض والذي يعتبر جزءاً من عالم الجنة كما يصف شيمل . (Schimmel، 1976, ص 15).

ستكون محاولات المطابقة هذه بين العالمين سهلة جداً لمن أراد المبالغة الوصفية على سبيل المجاز لا الحقيقة ، والإذعان لمبدأ : " يجوز للشاعر مالا يجوز لغيره" ، ويشمل هذا (الغير)حتى أصحاب الفنون الأخرى ومن بينهم مصممو الحدائق ، الذين لا يمكن أن يجاروا الشعراء في تحليقاتهم الخيالية . فكما

ذكر Schimmel : أن الشعراء بالطبع سيجدون الحوريات على الأرض ، ومثل ذلك صحيح بالنسبة لمظهر آخر من مظاهر الجنة و هو الخمر تحديداً و الذي يقدم للمؤمن . وهو يقصد بذلك الربط بين حور الجنة و جميلات الأرض و خمر الجنة و خمر الدنيا . (Schimmel ،1976, ص 15)

ولكننا نعلم أن البون شاسع بين المشبه والمشبه به هنا ، لكن الشعراء وكما ذكرنا آنفا ومن فرط شاعريتهم ومبالغاتهم يقربون العالمين لبعضهما بعضاً حتى يخيل للمرء أنهما ينطبقان تماماً. ويجب أن يؤخذ تأثر المتأخرين بالشعراء في فهمهم لمقصد المصممين في إطاره الزمني وإطاره السياسي وإطاره الاجتماعي. فمعظم هذه الأشعار جاءت بعد انتهاء أعمال البناء و جاءت اجتماعيا وسياسيا في إطار كيل المديح لصاحب السلطان الذي بنى الحديقة . ويأتي تقريبها من الجنة الأخروية من خلال الشعر كرفع لمقدارها و إن لم يكن على وجه الحقيقة بل في سياق البلاغة و المجاز.

ولعل الأبيات المشهورة التالية لابن خفاجة توضح جلياً كيف يعلي الشعراء شأن ما هو أرضي إلى درجة ما هو سماوي ، حيث قال في إطار وصفه للأندلس مادحاً إياها :

يأهل أندلس لله دركم	ماء و ظل و أنهار و أشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم	ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً	فليس تدخل بعد الجنة النار

الموسوعة الشعرية:

فشعراء بلاد فارس على سبيل المثال ظلوا لقرون يستمتعون في مقارنة حدائقهم الأرضية بحدائق الجنة السماوية الموعودة في القرآن (Hitchcok ،1978, ص 72) . ويفصل Hanaway في تحليل التشبيهات بين الحديقة و الجنة في الشعر الفارسي ما بعد الإسلام ، حيث الجنة هي الأنموذج الأسمى الذي يحدد مفهوم الحديقة الأرضية و الرمزية الشاعرية التي تعلي من شأنها (Hanaway ،1976, ص 45) . أي أن الحديقة الأرضية هي المشبه دائما و الجنة هي المشبه به دائما .

ويضيف بأن هنالك تفاعلاً مستمراً بين العالم الواقعي- ويقصد به الأرضي- والعالم المثالي أي السماوي . حيث يوضع النموذج الأصلي أمام المثال الحقيقي ، وتبدأ المقارنة بين الحديقة الأرضية والجنة . تقابل جميلات البلاط الحوريات ، والماء في الحديقة الكوثر ، والبستاني "رضوان" حارس باب الجنة و بساتينها، وأخيرا شجرة الدلب الجليلة تصبح التجلي الملموس لشجرة طوبى التي في الجنة . أصبح هذا

التفاعل بين السماوي و الأرضي فيما بعد جزءاً من التشبيه البلاغي المستخدم والذي يظهر بكثرة في الشعر الفارسي (Hanaway ،1976, ص 45) .

ومن الأقوال التي اشتهرت بالمبالغة في الرفع من شأن الحدائق الأرضية إلى حد ربطها بالجنة ، مقولة السلطان الهندي المسلم والمنحوتة في حديقته المسماة شالمارباغ : "إن كان هنالك جنة على وجه الأرض فهي هنا فهي هنا فهي هنا " (Jellicoe ،1976, ص 117) . أنظر الشكلين(7، 8) . وهذا دليل على القناعة بأنه ليست هناك جنة على الأرض بمعناها الأخروي و إن كانت هذه البقعة من أجمل البقاع بمعناها الأرضي . ويشبه ذلك تماما ما كتبه الرحالة العثماني إفلبيا سلبر (1611–84 م) في وصفه لحدائق ديار بكر، حيث كتب بأن الحدائق هناك على الجانب المقابل لنهر دجلة : "تعطي مذاقاً مبكراً لحدائق الجنة ، فاللسان عاجز عن الإتيان بالكلمات عندما يحاول وصفها " (Reinahrt , 1991, ص 21) .

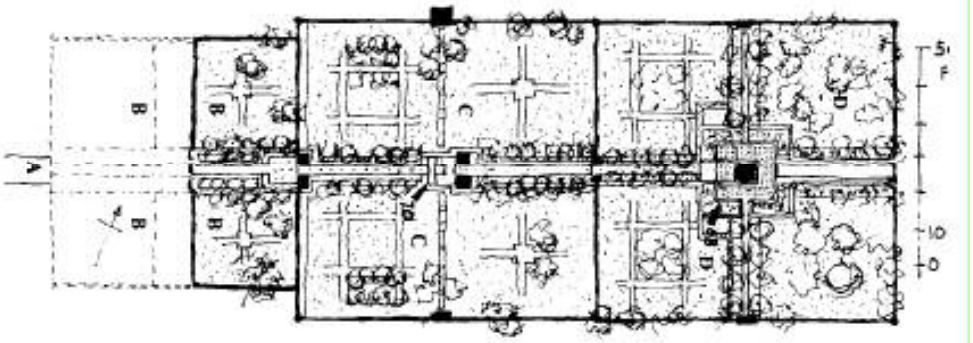

شكل 6 : مسقط أفقي لحديقة شالمارباغ في كشمير .

المصدر: (Jellicoe G and S ،1991, ص 52)

شكل 7 : صورة من حديقة شالماربا غ حيث السرادق الأسود محاط بالماء و النوافير والشلالات .
المصدر: (Jellicoe G and S ،1991, ص 52)

خامساً : الإسلام و المتع الحسية

من أبرز سمات الحياة الآخرة في المفهوم الإسلامي مبدآ الثواب والعقاب . الثواب الذي تمثله الجنة التي وُعد المتقون والعقاب الذي تمثله النار . و تعتبر المتع الحسية الموعودة في الجنة المنتهى في النعيم غير المسبوق والذي وردت أوصافه في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة . فالله سبحانه و تعالى هو خالق الإنسان و الأعلم بمكنونات نفسه البشرية و ما يسعدها ، سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الدار الآخرة. فالإنسان هو الإنسان . وقد جبل على حب منظر الخضرة و منظر الماء و كل ما هو جميل سواء أكان هذا على الأرض أم في الجنة . والإسلام لا يحرم المتع الحسية أبداً مادامت في إطارها المشروع . فإذا كان الناس قد جبلوا على حب هذه المتع ، فتبعا لذلك كان النعيم الأخروي يتسق مع هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها وكان جزاء رب العالمين لهم حسب علمه بما سيستقر في نفوسهم من رغبة في مثل هذه المتع الحسية التي فطرهم على حبها أصلا ً . والقرآن مليء بالنصوص التي تؤكد على مبدأ سعادة أهل الجنة بعد دخولهم لها وفرحهم بما ينعمون به من متع حسية ونعيم دائم .

كانت هذه المتع الحسية التي تتلاءم مع الفطرة البشرية مثارا لعدم الفهم و للانتقاد من النصارى نظراً لتبنيهم الرهبانية وعزوفهم عن المتع الحسية .ويؤكد Garthwaite ذلك بقوله :"إنه ليس مدعاة للعجب تلك الفجوة الواسعة في الفهم بين أوروبا النصرانية والعالم الإسلامي ، والناشئة من الاختلافات الدينية ،

واللغوية ، و الحضارية والتي اتسعت بسبب قرون من الحروب و الاستعمار ، وأدت إلى سوء فهم شائع عن العالم القادم بين الطرفين" .

ثم يضيف بأن النصارى وبإصرار أساؤوا فهم طبيعة المتع التي وُعد المسلمون في الجنة، وصوروها كمكان للفسق . فقد نشر الفرنسي مايكل بودير عام 1626م كتابا عن الإمبراطورية العثمانية يصور على غلافه تباينا مثير للاستياء بين المفهوم النصراني و الإسلامي للجنة ، حيث يشمل ذلك الغلاف على صور لمسلمين يستحمون وما يفترض انهم يعبدون القمر . (Garthwaite ، 1991, ص 43)

أكد Reinahrt على سوء الفهم هذا وذكر أنه غالبا ما عاب أوربيو العصور الوسطى على الإسلام حرفيته ونظرته فيما يتعلق بالمتع المحسوسة في سياق الوصف القرآني للجنة . ومع أن المسلمين أحيانا اعتنقوا ذلك المفهوم حسب رأيه ، وهو بذلك ربما يشير إلى ما يفعله بعض الزهاد من المسلمين في ميلهم إلى الابتعاد عن المتع الدنيوية . إلا أنه يستدرك بأن علماء الإسلام عامة رأوا أن هذا العالم حسن و أن استخدامه جائز. ويضيف إلى ذلك أن المسلمين ، حتى الصوفيين منهم ، رفضوا التبتل و يقصد به الامتناع عن الزواج لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذي كان المسلم الكامل ، لم يكن متبتلا (Reinahrt،1991, ص 21) .

وقد يكون هذا هو الرابط بين حب المسلمين للاستمتاع بالمحسوسات كالماء والخضرة و الجمال على سبيل المثال في الدنيا والمتع الحسية التي أعطيت لهم في الجنة . الرابط هو الفطرة ذاتها ، أي الطبيعة الإنسانية ، لا لأن الماء والخضرة و الجمال موجودة في الجنة. إذاً يجب تقليدها في الدنيا كما يصور لنا بعضهم لتصبح حدائقنا الأرضية صوراً مجردةً من الجنة بعيدة في تصورها من التمثيل والتشبيه. إذاً الفصل في ذلك هو ما جبل عليه الإنسان أولا وكون الإسلام لا يرى بأسا في المتع الحسية المشروعة ثانيا . تلك المتع والمحسوسات التي جرب المسلم عملياً صوراً أرضية منها ، بل لنقل صوراً غير مثالية بالمقاييس الأخروية ، و أحس بانعكاسات نفسه الإيجابية نحوها دنيويا على قصورها، و يأمل بما هو فوقها أخرويا ، لقناعته التامة باختلاف المقاييس بين ما هو أرضي وما هو سماوي . إذا المتع والأحاسيس هي المشتركة وهي المتناوبة دنيويا وأخرويا مع الفارق الذي يرتبط باختلاف البيئتين الأرضية الدنيوية والسماوية الأخروية.

هذه الأحاسيس هي التي قادت الإنسان المسلم لبناء الحدائق على الأرض و هي التي ساعدته ليعمل صالحاً في الدنيا لينال الحديقة المثالية في الآخرة . حيث تساعده تجربته الأرضية –على تواضعها– في

التفاني في سبيل الحصول على التجربة الأنموذجية . ترى هل من المنطقي لمن أيقن بمثالية الجنة الأخروية أن يسعى إلى تجسيدها تجسيداً أرضياً؟ لا شك أنه قاصرا و يسيء إليها. أم أن يجتهد في طلبها بذاتها؟

الخاتمة :

مما تقدم يتبين لنا أنه مع إدراك الغرب لأهمية التجربة الإسلامية في تصميم الحدائق وكونها الانعكاس الطبيعي للحضارة الإسلامية ، هناك الكثير من سوء الفهم في تفسير دوافع بناء الحدائق الإسلامية و الأطر النظرية و الفلسفية وراء تلك التصاميم . لذا فإنه من المنصف أن نقول إن هذه الآراء التي أتت في إطار ما كتب عن الحدائق الإسلامية لم تكن تعبر فعلا عما دار بخلد مصممي تلك الحدائق في ذلك الوقت ، وأن هذه الفلسفة في ربط الحدائق الإسلامية بالجنة الأخروية لا تخلو من مبالغة ، كما أنها لا تخلو من الثغرات كما رأينا في سياق هذا البحث . و محاولة الربط القسري بين بعض عناصر الحديقة الإسلامية وما يعتقد أنه يقابلها في الجنة و إغفال عناصر أخرى يدلل على سوء الفهم الذي نقصده , كما يدلل عليه أيضاً إهمال الجوانب الوظيفية التي أدت إلى وجود تلك العناصر في الحديقة الأرضية .

ألا يسعنا في ختام هذا البحث كمصممين للحدائق أن نذهب مذهب السلطان الهندي المسلم في إتقان حدائقنا الأرضية إلى الحد الذي نصل فيه لأن نقول و بثقة كقوله الذي مر بنا في متن هذا البحث : "إن كان هنالك جنة على وجه الأرض فهي هنا فهي هنا فهي هنا ! " ، ولكن في إطار الاستجابة لأحاسيس النفس البشرية و إمتاعها باعتبار ذلك يتماشى مع الإسلام والفطرة الإنسانية ، أي أن نفخر بأن للحدائق التي ننشئها اليوم و غداً من الصفات ما يمتع الأحاسيس و يبهج النفس للدرجة التي نعتقد بأنها التجسيد الأرضي لاستيعاب حواس المستخدمين لأقصى درجة ممكنة أرضياً. إن تجاوب حدائقنا الأرضية مع أحاسيس الإنسان يجب أن يكون المطلب التصميمي الذي لايُغفل أبداً . فبتحقيق هذا المطلب يقترب تصميم حدائقنا وظيفياً من التصور القرآني التجريدي للجنة مع الفارق في طبيعة كل منهما ، لأن الجنة هي بحق المثال في استيعاب حواس نزلائها و إمتاعهم سماوياً .أي أن نركز على نوعية التجربة الإنسانية في الحديقة الأرضية كي تكون أكثر إمتاعاً ، دون أن نخوض في الربط النمطي بين الجنة السماوية والحديقة الأرضية غير الممكن عمليا كما رأينا في معرض هذا البحث ، لأن تقليد الجنة نمطياً على الأرض وإن تحقق على سبيل المجاز والرمزية وعلى نحو قاصر في وجه من الوجوه فإنه من دون أدنى شك سيخفق في وجه آخر .

المراجع العربية

إبن قيم الجوزية ، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي . 1420هـ ، 1999 م .حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح . تحقيق ودراسة د. السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي، بيروت ، الطبعة الثامنة.

ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي . لسان العرب . دار صادر ، بيروت ، لبنان .

أبو عودة ، عودة خليل . 1405 هـ ، 1985 م . التطور الدلالي بين لغة الشعر و لغة القرآن . مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى .

الأشقر، عمر سليمان . 1421هـ ، 2000 م. اليوم الآخر : الجنة والنار . دار النفائس للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، الطبعة التاسعة ،

الجمل ، إبراهيم محمد الجمل . دخول الجنة بغير حساب . دار القلم للتراث .

الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر . 1403هـ ، 1983م . مختار الصحاح . مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، سوريا .

الراغب الأصفهاني ، أبي القاسم الحسين بن محمد . المفردات في غريب القرآن . تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

الطهطاوي ، علي بن أحمد عبد العال . 1409 هـ ، 1989 م . المنهل العذب المختار فيما ورد في الجنة والنار . دار ابن زيدون للطباعة والنشر ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى .

العويد ، محمد رشيد . 1420 هـ ، 1999 م . جولات في روضات الجنات . دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان , الطبعة الرابعة .

الموسوعة الشعرية ، الاصدار1.0 ، قرص مضغوط ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، ص . ب 2380 ، بريد إلكتروني cultural@cultural.org.ae

المعوشرجي ، شريدة . 1404 هـ ، 1984 م . صفة الجنة في الكتاب والسنة . الدار السلفية ، حولي ، الكويت ، الطبعة الرابعة .

المقدسي ، الحافظ ضياء الدين أبي محمد بن عبد الواحد الحنبلي . 1423 هـ ، 2002 م ، كتاب صفة الجنة . تحقيق صبري بن سلامة شاهين ، دار بلنسية للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، الطبعة الأولى .

بالي ، وحيد بن عبد السلام . 1414 هـ ، 1994 م . وصف الجنة من صحيح السنة . مكتبة الصحابة ، المملكة العربية السعودية ، جدة ، الطبعة الأولى .

رطروط ، سليمان حسن . 1420هـ ، 1989 م . الجنة في القرآن الكريم أوصافها ، أهلها ، نعيمها . مكتبة المنار للطباعة و النشر والتوزيع ، الأردن ، الزرقاء ، الطبعة الأولى .

رفيع الدين ، محمد أبو البشر . 1423هـ 2002 م . الجنة رأي العين . دار الفنون للطباعة والنشر و التغليف ، جدة ، الطبعة الأولى.

المراجع الأجنبية:

Blakstad, Ralph. 1986.What is an Islamic Garden: Where is Paradise?. Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Centre 1: 20-23.

Clark, Emma. 1996 . Underneath Which Rivers Flow . Parabola 21(3): 63-68.

Copplestone, Trewin. General Editor. 1977. World Architecture: an Illustrated History . Published by Chartwell Books Inc., New Jersey , The Hamlyn Publishing Group Limited,

Dickie, James . 1976. The Islamic Garden in Spain . In : The Islamic Garden . (Edited by Macdougall, Elisabeth and Ettinghausen, Richard) . Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington , District of Columbia.

Ettinghausen, Richard. 1976 . Introdution . In :The Islamic Garden. (Edited by Macdougall, Elisabeth and Ettinghausen, Richard). Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington , District of Columbia.

Garthwaite, Gene R. 1991. Popular Islamic Perception of Paradise Gained . In : Images of Paradise in Islamic Art. (Edited by Blair, Sheila S. and Bloom, Jonathan M.. Hanover, N. H.) Hood Museum of Art, Dartmouth College.

Hanaway, William L. 1976 . Paradise on Earth: The Terrestrial Garden in Persian Literature . In : The Islamic Garden .(Edited by Macdougall, Elisabeth and Ettinghausen, Richard.) Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington , District of Columbia.

Hitchcock, Veronica 1978. Paradise on Earth, the Gardens of Shiraz, Iran . Country Life, January 12.

Jellicoe, Geoffrey and Susan . 1991. The Landscape of Man : Shaping the Environment from Prehistory to the Present Day . Thames and Hudson Ltd, London.

Jellicoe, Susan. 1976 .The Development of Mughal Garden In : The Islamic Garden . (Edited by Macdougall, Elisabeth and Ettinghausen, Richard.) Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington , District of Columbia.

Lehrman, Jonas. 1980 . Earthly Paradise: Garden and Courtyard in Islam . University of California Press, Berekeley and Los Angeles.

Michell, George. Editor . 1978 . Architecture of the Islamic World: its History and Social Meaning . William Morrow and Company, Inc. New York.

Morrow, Baker. 1987. A dictionary of Landscape Architecture . The University of New Mexico Press.

Newton, Norman T. 1981 . Design on the Land , The Development of Landscape Architecture . Harvard University Press, London, England,.

Petruccioli, Attilio. Rethinking the Islamic Garden. Bulletin 103 : Transformation of Middle Eastern Natural Environments: Legacies and Lessons, Section III : Nature and Culture . (Volume Edited by: Albert, Jeff et. al.) . Yale School of Forestry & Environmental Studies .

Reinhart, Kevin. 1991 . The Here and Hereafter in Islamic Religious thought . In : Images of Paradise in Islamic Art. (Edited by Blair, Sheila S. and Bloom, Jonathan M.. Hanover, N. H.) . Hood Museum of Art, Dartmouth College.

Schimmel, Annemarie. 1976. The Celestial Garden in Islam . In : The Islamic Garden . (Edited by Macdougall, Elisabeth and Ettinghausen, Richard.) Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington , District of Columbia.

Shirvani, Hamid. 1985. The Philosophy of Persian Garden Design : The Sufi Tradition. Landscape Journal, Spring 4 (1).

Stiny, G. and Mitchell . W. J. 1980 . The Grammar of Paradise : on the Generation of Mughul Gardens. Environment and Planning B. 7(2) : 209-226.

Taylor, Brian Brace . 1983 . Smiles of Paradise. Mimar 8: Architecture in Development. Singapore . Concept Media Ltd.

Tobey, G. B. 1973. A history of Landscape Architecture: The Relationship of People to Environment . American Elsevier Publishing Company, New York.

Received 22/01/1425;13/03/2004, accepted 18 /09 /1425; 01/11/2004